﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾

[التحريم: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مَن يحسن الأدب مع الله تعالى ينال الرِّفعة والفضل والقرب منه

لَمّا أتَمَّ النَّظم الكريم ضَرْبَ المثل بمَنْ أحسنت الأدب فلم يضرَّها اتِّصالها بأعدى أعداء الله، بل زادها ذلك رِفعة وقُربًا - أتْبَعَه بمَثلٍ لقريبتها في الفضل، مريم عليها السلام، الَّتي شابهتها في الكمال، مع اختلاف الحالين: فامرأة فرعون كانت ثيِّبًا تحت طاغية، ومريم عذراء لم يُخالطها زوج، ومع ذلك أحسنت الأدب مع الله ومع خلقه، فجازاها الله بإحسانه وعنايته، جزاء من صدقت وآمنت وأحسنت[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحۡصَنَتۡ﴾: الإحصانُ على وزن إفعال، وهو مصدرٌ مُشتقٌّ من أحصنَ، يُحصِنُ، إحصانًا، وأصلُه: المَنْعُ، يُقالُ: حَصُنَ المكانُ فهو حَصينٌ: إذا صار مَنيعًا، وامرأةٌ حَصانٌ: عَفيفَةٌ، والمرأةُ تكونُ مُحصَنةً بمعاني الإحصان، وهي: الإسلامُ، والعَفافُ، والحُرّيَّةُ، والتَّزويجُ، يُقالُ: أحصَنَت المرأةُ، فهي مُحصَنةٌ ومُحصِنَةٌ، وكذلك الرَّجلُ. ويُطلَقُ الإحصانُ على الحِفظِ والحِرزِ، ومنه الحِصنُ: وهو الحِرزُ، وكلُّ مَوضِعٍ لا يوصَلُ إلى ما فيه[2]. ومعنى إحصان الفرج: هنا إعفافه وحفظه وصيانته عن الحرام[3]، بَلْهَ مقدّماته.

2) ﴿فَنَفَخۡنَا﴾: أصْلُ الكلِمَةِ يَدُلُّ على انْتِفاخٍ وعُلوٍّ؛ والنَّفْخُ: إخْراجُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 212.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (حصن).

(3) ابن كثير، تفسير ابن كثير: 8/ 173.

الرّيح مِنَ الفَم، ويكونُ ذلك في الاستراحَةِ والمُعالَجَةِ ونَحوِهما، ونَفَخَ النّارَ بالمِنْفاخ: هَيَّجَها وأذْكاها بريحِه، والمِنْفَخُ والمِنْفاخُ: آلَتُهُ، وهو ما يُنْفَخُ به. ومِن معاني النَّفْخِ: الفَخْرُ والكِبْرُ[1]؛ والمعنى هنا: أن اللّه تعالَى أمر جبريل ﷺ أن ينفخ بفيه في جيب قميص مريم، فنزلت النَّفخة من فتحة الدِّرع حتَّى ولَجَتْ في فَرْجِها، فكان منها الحمل بعيسى ﷺ بإذن اللّه[2].

3) ﴿ٱلْقَٰنِتِينَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (قَنَتَ): وقَنَتوا للّه، أي: أطاعوه، ومنه القُنوتُ، وهو لُزومُ الطّاعةِ مع الخُضوعِ، أو الطّاعةُ الدّائمةُ، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دينٍ[3]. والقُنوتُ أيضًا: الدُّعاء في آخر الوترِ قائمًا، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: 238]، وقَنَتَتِ المرأةُ لزوجها، أي: أطاعتْهُ[4]. والقُنوتُ مَصْدَرٌ مِنْ بابِ قَعَدَ بمعنى: الدُّعاءُ، ويُطْلَقُ عَلَى القيام في الصَّلاة، ومِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: "أفْضَلُ الصَّلاة طولُ القُنوت"[5]، ودُعاءُ القُنوتِ أيْ: دُعاءُ القيام، ويُسَمَّى السُّكوتُ في الصَّلاة أيضا قُنوتًا[6]. والمعنى هنا: أي: المُلازمين للطّاعة المداومين على العبادة مع الخُضوعِ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ضرب اللّه تعالى مَثَلًا بمريمَ بنتِ عِمْرانَ الَّتي حَفِظَت فَرْجَها، وصانَته مِنَ الفاحِشةِ؛ لكَمالِ عِفَّتِها وصَلاحِها فنفَخَ جبريلُ بأمْرِنا في جَيْبِ دِرْعِها، فحَمَلَت بابنِها عيسى ﷺ، وآمَنَت بكَلِماتِ اللّهِ وكُتُبِه، وكانت مِنَ المُطيعينَ للّهِ، المواظِبينَ على طاعتِه[8].

العفّة، وكمالُ الطّاعة مرقاةٌ إلى عظيم المنزلة، والفضل

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المُحكم، والزَّبيدي، تاج العروس: (نفخ).
(2) ابن كثير، تفسير ابن كثير: 8/ 173.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قنت).
(4) الخليل، العَيْن: (قنت).
(5) رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم: (756).
(6) الفيومي، المصباح المنير: (قنت).
(7) الملا علي القاري، أنوار القرآن وأسرار الفرقان: 5/ 185، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 875.
(8) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 117، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 204، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 226، والسِّعدي، تيسر الكريم الرَّحمان، ص: 875.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة عطف الآية بالواو:

الكرامة وسموّ المنزلة عند الله منوطان بالإيمان والإخـــلاص لا بالزَّواج أو عدمه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ عاطفة، عطفت ذكر (مريم) على ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ في التَّمثيل، فجمع الله سبحانه في ضرب المثل بين امرأة متزوجة ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وامرأة عذراء (مريم)، وفي هذا تسليةٌ للأرامل ومن لا زوج لها وتطييب لخواطرهن، بأنَّ نيل الكرامة عند الله لا يتوقَّف على الزَّواج أو عدمه، بل على الإيمان والإخلاص والطُّهر والعِفَّة[1].

نُكتة تتميم الأمثال السّابقة بضرب المثل بمريم:

كلام الفُجّار لا يَنقص من قدر الأبرار

في ضَرْبِ المَثَلِ بالمؤمنة مريم - من جهة أخرى - دلالة عظيمة على أنَّ قدح الأعداء وافتراءاتهم لا تضرُّ أهل الإيمان شيئًا عند الله، فقد رماها اليهود بالكذب والبُهتان، واتَّهموها وابنها بما نزّههما الله عنه، وهي مع ذلك صِدّيقة مُصطفاة على نساء العالمين، فدلَّ ذلك على أنَّ كلام الفُجّار لا يَنقص من قدر الأبرار، وفي هذا تسلية لأمِّ المؤمنين عائشة ﵂ إن كانت السّورة نزلت بعد حادثة الإفك، وتوطينٌ لنفسها على ما قيل فيها إن كانت السّورة قبلها. كما أنَّ في المَثَلَيْن السّابقَيْن - بامرأتي نوح ولوط - تحذيرًا لعائشة وحفصة ممّا بدر منهما، ودعوةً لطاعتهما لله ورسوله، فجمعت هذه الأمثال بَيْنَ التَّحذير، والتَّحريض، والتَّسلية، والتَّقوية[2].

سِرُّ ذِكْرِ مريم باسمها ووصفها بابنتِ عمران:

في ذكر الاسم تخصيصٌ بالتَّشريفِ والتَّعظيمِ والتَّخليد وتمييزِ المكانة

سِرُّ ذِكْرِ مريم باسمها الصَّريح ووصفها بـ ﴿ٱبْنَتَ عِمْرَانَ﴾ دون نسبة إلى زوج، يعود إلى كونها عذراء لم تتزوَّج، فناسب المقام أن تُعرف بأبيها، لا بزوجٍ لم يكن لها، وفي ذلك تشريفٌ وتعظيمٌ خاصٌّ

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 573، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 216، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 226، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 270.

(2) ابن القيِّم، إعلام الموقعين: 1/ 145.

بها، وتمييزٌ لمكانتها، وتخليدٌ لاسمها الَّذي لم يُذكر لامرأةٍ غيرها في مواضع مُتعدِّدة من القرآن، توكيدًا لصفائها، وطهارتها، وعُلوِّ مقامها بَيْنَ نساء العالمين[1].

بديع مُراعاة النَّظير في الجملة الكريمة:

من بديع مُراعاة النَّظير في النَّظم القُرآنيِّ، جَعْلُ المثل للمؤمنين على نسق المثلين السّابقين للكافرين، فتحقَّقت بذلك المُقابلة البيانيَّة بَيْنَ حال المؤمن وحال الكافر. وقد روعي في تمثيل حال المؤمنين وحدة السّياق والاتِّساق، فجاء المَثَلُ أوَّلًا بامرأة فرعون، أنموذجًا لقوَّة الإيمان برغم شدَّة الابتلاء، ثمَّ بمريم أنموذجًا لعظمة الطُّهر وملازمة التَّقوى، فكان في المثلين تجسيد لمعاني الإيمان والإخلاص، والمفارقة التّامَّة مع مثلَي الكافرتين، حيث جَمَعَ التَّصوير القرآنيُّ بَيْنَ الطَّرفين بالنَّظيرِ والمُقابلة والاتِّساق، في تنسيقٍ بديع، يُبرز الفروق ويُرسِّخ العبر[2].

غرض التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

وصف مريم عليها السلام بالطُّهرِ والعفاف تعظيم لمقامها، وتكريم لها

الغرض مِن التَّعبير عن مريم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ هو الإشارة إليها بوصف اشتهرت به، فقد عُرِفَتْ بتلكَ الصِّلةِ مِن قصَّتِها المعروفةِ، وهي العِفَّة والطَّهارة، فجاء الموصول مع صلته ليستدعي في ذهن السّامع ما عُرف عنها من طهرٍ وعفافٍ؛ وهذا ما يُضفي على المثل قوَّة في التَّأثير، ويوحي بأنَّ هذا الموضع مقام تعظيم وتكريم لمقامها، لا مُجرَّد إشارة لشخصها[3].

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بفعل الإحصان:

معنى: أحصنت، أي: عفّت نفسَها عن السّوء ومقدِّماته، فكانت

(1) محيي الدّين زاده، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: 8/ 264، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 170.

(2) ابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 28/ 376.

(3) ابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 28/ 379.

في عفّتها كالحصن العظيم المانع الَّذي لا يُقتحم من العدوِّ، ثابتةً على الطَّهارة حتَّى لقيت ربَّها؛ فالاستعارة في التَّعبير بالفعل ﴿أَحْصَنَتْ﴾ تظهر في كون اللَّفظ يوحي بالحماية الشَّديدة والمنع القاطع[1]، إذ استُعير فعل الإحصان وهو في الأصل بناء الحصن لحماية الشَّيء ومنع العدوِّ من اقتحامه، للدَّلالة على شِدَّة عِفَّة مريم عليها السلام وطهارتها، حتَّى كأنَّ فرجها كان في حصن منيع لا يصل إليه شيء، فالاستعارة هنا تصريحيَّة، شُبِّهت فيها عِفَّتُها بحال الحصن المنيع الَّذي لا يُخترق، وذُكر المشبَّه به (الإحصان) دون أن يُذكر المشبَّه (العِفَّة)، في إشارة بلاغيَّة إلى أنَّ عفَّتها لم تكن عاديَّةً، بل كانت حصنًا مكينًا، وهو تعبير يزيد في التَّعظيم والتَّنزيه والتَّكريم، ويُرسّخ في ذهن القارئ نقاء سريرتها ورفعة مقامها.

تفضيل مريم عليها السلام وتكريمها وتعظيمها كان سببه عفَّتها وطهارتها

بلاغة الكناية في التَّعبير بالإحصان:

يُفهم من قوله تعالى: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أنَّ الإحصان يدلُّ على العفّة والطَّهارة، وأنَّ المرأة إذا منعت نفسها عن الفاحشة وحرصت على صيانة عرضها، عُدَّت مُحصَنة. والإحصان في اللُّغة والشَّرع لفظٌ شامل، يُطلق على العفّة، والإسلام، والزَّواج، وكُلُّها تشترك في معنى الحبس والمنع عن الوقوع في الحرام، فكأنَّ مريم عليها السلام قد أحاطت نفسها بسياجٍ من الدّين والحياء والزُّهد، فصارت مُحصنة من كُلِّ داعٍ إلى الفاحشة[2].

الإحصان يصور لنا ما كانت عليه مريم من كمال الدّيانة والصّيانة، والحياء والزُّهد

بلاغة المجاز والكناية في قوله: ﴿فَرْجَهَا﴾:

ذهب بعض المُفسِّرين إلى أنَّ الفرج مجاز عن الجَيْب، أي: فتحة الثَّوب عند الصدر، بدليل قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، أي في جيبها[3]؛ وهو من المجاز المرسل، وعلى هذا يكون الفرج قد أُطلق مجازًا

الطَّهارة العظيمة والعِفَّة الكريمة لمريمَ عليها السلام أحاطت بِكُلِّ كيانها

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 213، والشِّربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 4/ 365.
(2) القصّاب، النُّكت الدّالة: 2/ 470.
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 305، والقنوجي، فتح البيان: 14/ 224.

عن موضع النَّفخ القريب من موضع العِفَّة، للدَّلالة على الطَّهارة التي أحاطتْ بِكُلِّ كيانها، فالَّتي حفظت جيب درعها تكون لا مَحالة أحفَظَ لموضع عِفَّتها؛ ويكون في التَّعبير كناية عن شِدَّة العِفَّة وعِظَم الطَّهارة[1].

معنى الفاء في قوله ﴿فَنَفَخْنَا﴾:

ما جرى لمريم عليها السلام من التَّكريم الإلهيِّ كان ثمرةً لإخلاصها وعفافها

تُفيد الفاء في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أنَّ ما جرى لمريم من التَّكريم الإلهيِّ كان ثمرةً لإخلاصها وعفافها، على سبيل تفريع الجزاء على العمل، فالمعنى: جازيناها على عفّتها وطهارتها بأن أكرمناها بولادة نَبيٍّ كريم من غير واسطة بشر، في صورةٍ خارقة للسُّنن الجارية؛ فكان خَلْقُ عيسى عليه السلام في رحمها مجازاةً لها على صيانتِها نفسَها، وقد جاء ذلك على وجهٍ خارقٍ للعادة، ليكون آيةً خالدة تُخلِّد ذكرها في سجل الصّالحات وأهل الفضل، فرفع الله به شأنها، وأبقى ذِكرها بين الطّاهرات المُكرَّمات[2].

بلاغة المجاز العقليّ في إسناد النَّفخ إلى ضمير العظمة:

الدَّلالة على تعظيم الآمر ﷺ وتفخيم فعله

نُسب النَّفخ في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ إلى الله تعالى، مع أنَّ الَّذي تولّاه فعليًّا هو جبريل عليه السلام؛ لأنَّه رسول الله المأمور بالفعل، فهو من المجاز العقليِّ؛ إذ أُسند النَّفخ إلى ضمير العظمة مع أنَّ النّافخ في الحقيقة هو جبريل عليه السلام بأمر من الله فنُسب الفعل إلى الآمِرِ تعظيمًا، كما نُسبتِ القراءة في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ [القيامة: 18] إلى الله، والفاعل جبريل، فالنَّبيُّ يتَّبع قراءته، وجاء الإسناد إلى ضمير الجلالة أيضًا للتَّفخيم تنويهًا بعِظَم أثره، لما في خلق الجنين عمومًا، وخلقه من غير أب خصوصًا؛ إذ نتج عنها خلق نبيٍّ كريم من غير أب في إعجاز لا يقدر عليه أحد سوى الله عزّ وجلّ[3].

(1) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 487.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 378.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة النِّساء: 2/ 508، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 503.

سِرُّ تقديم ذكر الإحصان والنَّفخ على التَّصديق بالكلمات والقنوت:

نفيُ المعايب، ونفيُ السّوء مُقدَّمٌ على إثبات الفضائل والمحاسن

قدّم النَّظم الكريم ذكر الإحصان والنَّفخ قبل التّصديق والقنوت؛ لأنَّ في حفظ العِرْض سلامةً من أقبح التُّهَم، فكان ذِكْر العفاف أوْلى بالتَّقديم، لما فيه من نفيِ المعايب، ونفيُ السّوء مُقدَّم على إثبات الفضائل والمحاسن[1].

توجيه المتشابه في دلالة الظَّرفيَّة ﴿فِيهِ﴾ هُنا و﴿فِيهَا﴾ في سورة الأنبياء:

تذكير الضمير لبيان شدة عفاف مريم عليها السلام والإشارة إلى الموضع الَّذي جرى فيه النَّفخ

لم يقل تعالى في هذا الموضع: (فيها) بل قال: ﴿فِيهِ﴾، مراعاةً للكناية عن الفرج، لأنَّ المقصود به هنا هو جيب الدِّرع، وهو مذكّر لفظًا، فجاء الضَّمير مناسبًا له، وهذا من باب الاستخدام البلاغيِّ؛ حيث أُريد باللَّفظ شيء، وبضميره شيء آخر، وهو من لطائف الصِّناعة البديعيَّة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: 6][2].

أمّا في قوله تعالى من سورة الأنبياء ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: 91] فقد كان الهدف بيان حال مريم وابنها، وأنَّ الله جعلهما آية للعالمين. ولمّا كان النَّفخ هو السَّبب في حَمْلها، والحَمْل صفة تشمل الجسد كلّه، أعيد الضَّمير إلى ﴿فِيهَا﴾ [الأنبياء: 91] لا إلى (فيه)؛ لأنَّ أثر النَّفخ لم يتوقَّف عند موضعه فقط، بل شمل ذاتها كلها فصارت حاملًا بغير زوج، وهو أمر خارق للعادة يستوجب التَّعجُّب، فناسب التَّعبير بقوله: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: 91] لإبراز العجيبة في كيانها كلِّه.

أمّا في سورة التَّحريم، فجاء الضَّمير ﴿فِيهِ﴾ مُراعيًا خصوصيَّة الموقف، إذ إنَّ الغرض بيان شدَّة عفافها مع الإشارة إلى الموضع الَّذي جرى فيه النَّفخ، مِمّا يليق بسياق ضرب المثل للنِّساء المؤمنات، فليس الغرض التَّعجُّب من حالها بعد النَّفخ، بل المقصود الإشارة

(1) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2193.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 70، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 487.

إلى واقعة النَّفخ باعتبارها سبب الحَمْل، فجاء الضَّمير على الأصل: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، أي: في فرجها مباشرة، دون الالتفات إلى ما ترتّب عليه في جسدها كلِّه، فكان لكلٍّ موضع تعبيره المناسب بحسب السّياق والغرض[1].

يُزاد على ذلك أنَّه لمّا كان التَّذكير في لسان العرب أخفّ وقعًا من التَّأنيث، وكان في آية التَّحريم قد تكرَّر ذكر ألفاظ التَّأنيث: كـ(مريم)، و﴿ٱبْنَتَ﴾، و﴿أَحْصَنَتْ﴾، و﴿فَرْجَهَا﴾، اختير التَّذكير في الضَّمير ﴿فِيهِ﴾ لتخفيف وطأة كثرة المُؤَنَّثات في السّياق، فجاء اللَّفظ مذكّرًا تخفيفًا، بخلاف الموضع الآخر الَّذي لم تتكرَّر فيه ألفاظ التَّأنيث بنفس القدر[2].

معنى ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن رُّوحِنَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، جاءت ﴿مِن﴾ في موضعها البيانيِّ، فهي تحتمل التَّبعيض إن أريد بالرّوح عيسى عليه السلام؛ لأنَّ تكوينَ المخلوقِ الحيِّ في رَحِمها كان دونَ الأسبابِ المعتادةِ تشريفًا لنفخته المضافة إلى الله تعظيمًا، وتَحْتَمِل الابتداء إن أريد بها جبريل عليه السلام، أي: أنّ النفخ بدأ من ملك من ملائكة الله المُكْرَمين؛ ففي كلا الوجهين إظهارٌ لعظمة النَّفخ وعلوّ مصدره، وتفخيمٌ لما ترتّب عليه من ولادة نبيٍّ كريمٍ على غير سنّة البشر[3].

تعظيم النَّفخ، وتفخيم ما ترتّب عليه من ولادة نبيّ كريم بغير سنّة البشر

نكتة الإضافة في ﴿رُّوحِنَا﴾:

قول الله تعالى: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ فيه إضافة الرّوح إلى نفسه تعالى، وهي إضافة تشريف وتكريم، لا إضافة صفة ذات؛ فالرّوح هُنا مخلوقة من مخلوقات الله، أضافها إليه كما أضاف البيت في قوله: ﴿بَيْتِيَ﴾

(1) ابن الزَّبير الغرناطي، ملاك التَّأويل: 2/ 351، والإسكافي، درة التنزيل: 1/ 913، والكرماني، أسرار التَّكرار في القرآن، ص: 180.

(2) الحموي، كشف المعانى فى المتشابه من المثانى، ص: 257.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 378.

[البقرة: 125]، والنّاقة في قوله: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 73]، والعبد في قوله: ﴿عِبَادِى﴾ [البقرة: 186]، وهذه كُلُّها إضافات تخصيص لا تشريك، تدلُّ على تكريم وتشريف واصطفاء لهذا المخلوق من بَيْنِ سائر المخلوقات[1].

معنى الواو في قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ﴾:

الدَّلالة على شرف التَّصديق

الواو في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ هي واو العطف، وقد عُطفت على فعل محذوف تقديره: (فحملت بعيسى) وصدَّقت بكلمات ربِّها...، والعطف يدلُّ على شرف المذكور بعد المحذوف (وهو التَّصديق)[2].

دلالة التَّعبير بلفظ التَّصديق مادَّة وصيغة:

إبراز المقام الإيمانيّ الفريد الَّذي بلغ بها مرتبة الصِّدّيقيَّة

جاء التَّعبير بـ ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ بصيغةٍ تُفيد التَّكرار والمُبالغة، ليُبرز مقام مريمَ الإيمانيِّ الفريد، فتصديقها لم يخالجه شكٌّ في أيِّ وقت من الأوقات، بل كان إيمانًا راسخًا، ويقينًا متجدِّدًا، واتّباعًا دائمًا، بلغ بها مرتبة الصِّدّيقيَّة، ولعلّ هذا هو السَّبب في تسميتها بالصّدّيقة في قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: 75]؛ فغدت مثالًا خالدًا لليقين الكامل، والإذعان المطلق لوحي الله، في كلّ ما أُنزل على الأنبياء، وفي مقدّمتهم ولدُها عيسى عليه السلام، وجاء هذا الخبر في هذا السّياق؛ ليكون تعليمًا بليغًا لنساء الأمَّة، يُرشدهنَّ إلى وجوب الإيمان برسالات الأنبياء جميعًا، والتَّصديقِ التّامِّ بما جاء به خاتمهم ﷺ، على وجه الخصوص، وأنَّ من تمام هذا التَّصديق: نُصرة دعوته، ومؤازرُته في تبليغ رسالته، والقيام بحقوقه، فإنَّ ذلك كلَّه من لوازم الإيمان الصّادق الَّذي لا يكتمل بدونه[3].

(1) ابن جزي، التَّسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 393، وابن القيِّم، الرّوح، ص: 154 - 156.
(2) الدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 143.
(3) صبحي المليجي، من أسرار النَّظم القرآني في علاجه مشاكل الأسرة: 3/ 2196.

نكتة جمع الكلمات:

كـلـمـاتُ الـلـه تعالى كونيَّة بها يَخلُق ويُكوّن، ودينيّة بها يَأمر ويَنهى ويُشرّع

جمع لفظ (كلمات) في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾؛ ليشمل نوعي كلمات الله تعالى: الكلمات الكونيَّة الَّتي بها يَخلق ويكوّن، والكلمات الدّينيَّة الَّتي بها يأمر وينهى ويشرّع، فجاءت مريم عليها السلام مؤمنةً مطمئنَّةً بهاتين الكلمتين معًا، لا تنكر شيئًا من أوامره الكونيَّة ولا من شرائعه الدّينيَّة، فإيمانها يشمل التّصديق الكامل بربوبيَّته قولًا وفعلًا، خلقًا وأمرًا، تشريعًا وتدبيرًا، ممّا يرفعها إلى مرتبة التَّمام في التَّوحيد والتَّسليم[1].

فائدة التّعبير بلفظ الرّبوبيّة مضافًا إلى ضميرها:

منزلة مريمَ عليها السلام عظيمة عند الله تعالى

جاء التَّعبير بلفظ الرَّبِّ مضافًا إلى ضميرها: ﴿رَبِّهَا﴾؛ ليجسّد صلتها الخاصَّة بالله تعالى، ويكشف عن مقام الإحسان الَّذي غمرها به ربُّها، فهو المحسن إليها بعنايته، فالإضافة هنا إضافة رعاية وتكريم، تُشعر بالقرب والاصطفاء، وتدلُّ على أنَّ رَبَّها تولّاها بعنايته قبل ولادتها ثمَّ بعد ذلك في نشأتها[2].

توجيه القراءات القرآنيّة المتواترة في ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾:

في قراءة الجمع تصديقٌ بجميع الكتب السَّماوية، وفي قراءة الإفراد يبرز التَّعظيم للإنجيل خاصَّة

قرأ البَصْريّانِ، وحفص عن عاصم: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ برفع الكاف والتّاء، من غير ألف، وقرأ الباقون: ﴿وَكِتَٰبِهِۦ﴾، بألف[3]، وقراءة الجمع تدلُّ على الكثرة وقراءة ﴿وَكِتَٰبِهِۦ﴾ على الواحد المراد به الكثرة والشّياع أيضًا[4].

وَذُكر أنَّ الجمع ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ دالَّة على التَّوراة والإنجيل والزَّبور والصُّحف، وعلى الإفراد ﴿وَكِتَٰبِهِۦ﴾ تكون الكلماتُ التَّوراة، والكتابُ

(1) ابن القيِّم، شفاء العليل، ص: 282.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 214.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 389.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 22/ 33.

الإنجيل[1]؛ وعلى هذا التَّأويل يبرز التَّنويع في التَّعبير عن كمال إيمان مريم عليها السلام؛ فقراءة الجمع تشير إلى تصديقها بجميع الكتب السَّماويَّة، وقراءة الإفراد تُبرز تعظيمها للإنجيل خاصَّة.

نكتة التَّعبير بفعل الكون الماضي:

عبادة مريم عليها السلام جبلّةٌ وطبعٌ وسجيّةٌ لا تفارقها

التّعبير بالفعل الماضي (كانت) يوحي بأنَّها بلغت في عبادتها، وطهارتها، وقيامها، وقنوتها، وذكرها لله مبلغًا عظيمًا، حتَّى تشرَّبت روحها هذه العبادات، واختلطت بها، وصارت لها جبلّة وطبعًا وسجيّة لا تفارقها[2].

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾:

نشأت الصّدّيقة مِن سلالة قوم صالحين عُرفوا بالطّاعة والخير

يجوز أن تكون ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ للابتداء، أي أنها نشأت من سلالة قوم صالحين عُرفوا بالطّاعة والخير، فسارت على نهج أصولها في العفَّة والعبادة. ويجوز أن تكون للتَّبعيض، أي: أنَّها واحدة من جماعة القانتين، لكنَّها لم تكن مجرَّد جزءٍ منهم، بل برزت فيهم، وصارت علَمًا على القنوت، يُضرب بها المثل في الخضوع والطّاعة، حتَّى غدت من أعلام هذا الرَّكْب الإيمانيِّ المبارك على مرّ الزمن[3].

نكتة ذكر القانتين بجمع التّذكير دون التّأنيث:

لم تكن مريم عليها السلام دون الرِّجال في الطّاعة

في قوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾، ومثله قوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ [القصص: 10]، لم يُقل: (من القانتات)، أو (من المؤمنات)، بل استُعمل جمع المذكَّر تغليبًا، وهو أسلوب عربيٌّ معروف، منها تقديمُ الذَّكَرَ على الأنثى عند الجمع بينهما. لكن وراء هذا التَّغليب معنى دقيق، وهو الإشارة إلى أنَّ مريم عليها السلام لم تكن دون الرِّجال في

(1) النسفي، التَّيسير في التفسير: 14/ 498.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 214.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 573، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 226، وأبو حيّان: 10/ 217، والأنصاري، فتح الرَّحمان، ص: 574، 575.

الطّاعة، بل بلغت من العبادة درجة عظيمة حتَّى عُدَّت في مصافّ القانتين الكاملين، لا القانتات حسب[1].

وفي هذا إيماء إلى أنَّ الكمال في العبادة أغلب في الرِّجال، كما جاء في الحديث الشَّريف: "كمل من الرِّجال كثير، ولم يكمل من النِّساء إلّا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران..."[2]، فدلّ التَّعبير على تميُّزها وندرة من يشاركونها هذا المقام من النِّساء، وأنَّها نافست الرِّجال في طاعتهم وعبادتهم، بل وارتقت إلى مستواهم، على الرَّغم من أنَّ نساء بني إسرائيل كُنّ معفيات من كثير من التَّكاليف الشَّرعيَّة. كما أنَّ التَّعبير جاء مراعيًا لفواصل الآيات ومتناسقًا مع نسق السّورة[3].

دلالة التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ مادّة وصيغة:

ضـمُّ الصِّدّيقة إلـــى زمـــرة القانتين للتّنويه بشرفها، وعلوّ مـنـزلـتـهـا في العبادة

في قوله تعالى: ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ إيماء إلى تبرئة مريم عليها السلام من بهتان قومها، إذ جاء النَّظم الإلهيُّ ليشهد لها بمقام الطّاعة الكاملة والخضوع الدائم، فضمّها إلى زمرة القانتين تنويهًا بشرفها، وعلوِّ منزلتها في العبادة، حتَّى غدت في مصافّ الأكابر من أولياء الله. وفي هذا التَّعبير أيضًا إشارةٌ خفيةٌ إلى ما أوصى الله به أُمَّهات المؤمنين في قوله: ﴿۞وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ [الأحزاب: 31][4]؛ فمريمُ عليها السلام أُسوةٌ حسنةٌ في القنوت والطّاعة، وأُمَّهات المؤمنين خَلَفٌ لها في هذا السَّبيل، ليكون القنوت ميزان الطُّهر، ومقياس الشَّرف، وسبيل النَّجاة.

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 573، والشِّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 241، وابن عثيمين، تفسير سورة القصص، ص: 49.

(2) الحديث رواه البخاريُّ: (3433) واللَّفظُ له، ومسلمٌ: (2431).

(3) أبو حيّان: 10/ 217، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 226، وأبو السُّعود، ارشاد العقل السَّليم: 8/ 270.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 379.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القُنوت والخُشوع:

الخُشوعُ: لينُ القَلْبِ وخُضوعُهُ، ورِقَّتُهُ، وسُكونُهُ، وحُضورُهُ وقْتَ تَلَبُّسِهِ بالطّاعَةِ، فَتَتْبَعُهُ جَميعُ الجَوارِحِ والأعْضاءِ[1]، أمّا القُنوتُ فَيَرِدُ في القُرْآنِ على قِسْمَيْنِ:

القِسْمُ الأوَّلُ: قُنوتٌ عامٌّ لِجَميعِ المَخْلوقاتِ بِمَعْنى الخُضوعِ كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الرّوم: 26]، والمَعْنى: الكُلُّ عَبيدٌ خاضِعونَ لِرُبوبيَّتِهِ، وتَدْبيرِهِ ﷻ، لا مَعْبودَ بِحَقٍّ سِواهُ. **والقِسْمُ الثّاني**: القُنوتُ الخاصُّ: وهوَ دَوامُ الطّاعَةِ للّهِ على وجْهِ الخُشوعِ، وهوَ الأكْثَرُ في القُرْآنِ الكَريمِ؛ ومِنْهُ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزُّمَر: 9]، ونَحْوُ ذَلِكَ[2]. وهو الحال الَّذي كانت عليه الصّدّيقة مريم عليها السلام مع ربّها حتَّى انمازت به، ولازمها وصفَ تشريف، وثناء.

(1) ابن رجب الحنبلي، الذُّلُّ والِانْكِسارُ لِلْعَزيزِ الجَبّارِ، ص: 35.
(2) السّعْدي، تَيْسيرُ اللَّطيفِ المَنّانِ: 01/ 311.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والستون،
سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 62 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-640-02-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 62 : المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-640-02-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5378070 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"